

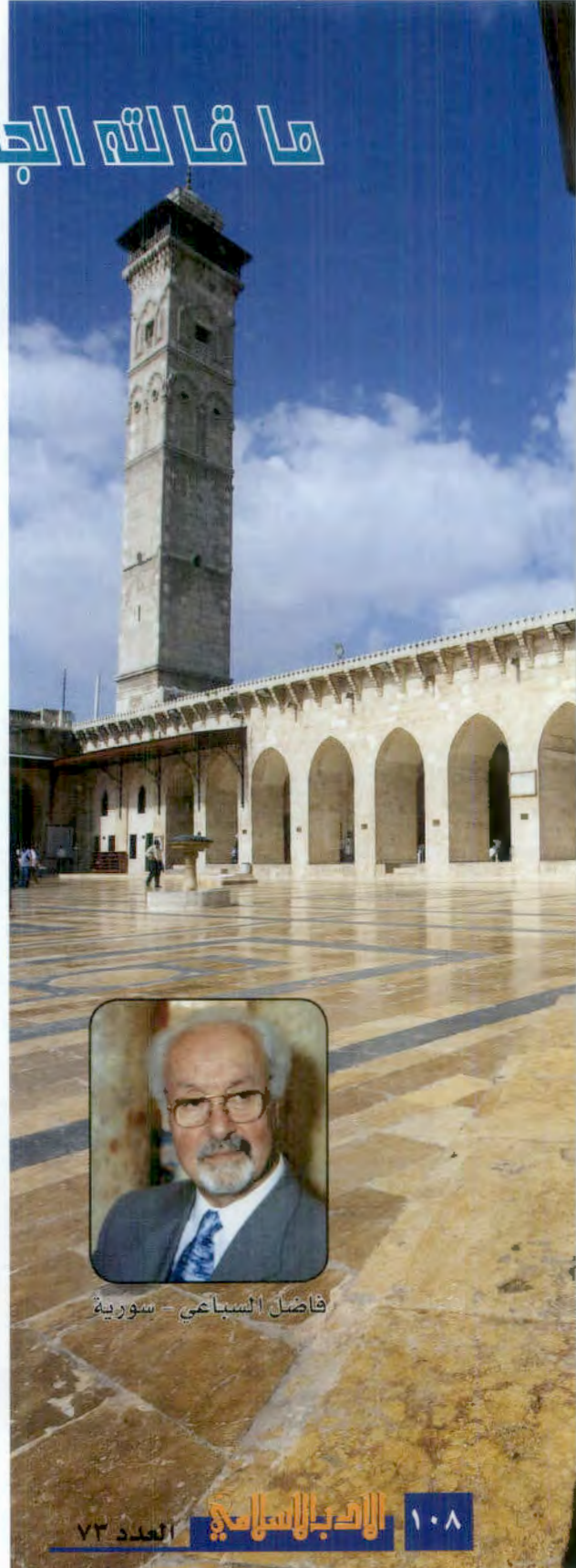


ما قاله الجد.. في الدار العتيقة

ما إلى هذا الوصف قصدت... بل لأقول: إنه كان في بيتنا مطبخان اثنان، أحدهما نُسَمِّيهِ «الفوقاني»، وهو يُفضي بداخله إلى «قَبْو» شديد العتمة، أطلقنا عليه «بيت المونة»، والثاني يُنَزَل إليه بدرجات عشر سَمَّيناه «المطبخ التحتاني»، ولم يكن محلّ طبخ، إلا عندما تتهمّم جدّتي العتيقة «أمّ رثيف» بإعداد «الكنافة بين نارين»، تُفرش جانباً من البلاط الأصفر بالرماد وتوقد فوقه الفحم.

وفي الجبّ تحت رُكْبَتِ «طُرْمَبَة»، كانوا يفرضون علينا نحن الصغار أن نُضَخَّ منها الماء، ولما كانت يدها (ساعدها) ثقيلة، فكان أحداً يتعلّق بها رافعاً القدمين، ثمّ ينزل الأرض فينزل شيء من الماء في قعر السطل، الذي علينا أن نصعد به عند الامتلاء إلى أرض الحوش، وتلك كانت أكبر معاناة نتعرّض لها نحن

في الدار العتيقة، التي شهدت مولدي قبل ثمانين عاماً، في «زقاق الزهراوي» بحلب، الواقع فيما يُسمّى حيّ «وراء الجامع»، كانت تنظم حول «أرض الحوش».. «أرض الدار» غرفاً أو «بيوت» كما يسمونها بحلب أحياناً، كلما عدّتها بالذاكرة نسيّت العدد لتدخل بعضها في بعض، والآن أقول: إنها ستّة بيوت، و«ليوان» عالي السقف يستقبل الهواء الشمالي في ليالي الصيف، يضاف إلى ذلك «المرّيع» (العلّية)، نطلع إليه بدرج ذي درابزين، وكانت تتوسّط أرض الحوش بركة ذات نافورة، تستمدّ ماءها من «القناية»، وذلك قبل أن يُستغنى عن ذلك بـ«ماء الشربة»، وكنا نغطّس في مائها في ليالي الصيف (البطيخة الحمراء)، لنأكلها وقد نالها شيء من البرودة، قبل أن يُعرف الناس «البرّاد».



فاضل السباعي - سورية

الصفار أولاد الأخ الأوسط، الذي ما زال يُجِب من زوجتيه الاثنتين، على حين عَزَّ الإنجاب على الأخ الأكبر لِعَقْم فيه، أو في زوجته التي كان قد تزوجها في أعقاب ١٩١٥م، وتقاعس الأخ الأصغر فلم ينجب إلا ثلاثة قبل أن يُسرِع إليه الموت. وأما العمّة، فلم يكن لها من الذرية في ذلك الحين إلا بنتٌ، تُؤَثِّرُها جدتي وأُمُّها إثَاراً على كل أفراد الأسرة، وفي مقدمتهم أُمي، التي كانت قد أنجبت للأسرة تلك الأيام ستاً، قبل أن يبلغ ما أنجب أبي من زوجتيه الولودين تسعة عشر من البنين والبنات.

ثانية أقول، في نزعة «جاحظية»: ما إلى هذا قصدت... بل لأقول: إنه كان في المطبخ التحتاني «فتحة» في الجدار ليست بذات باب، تُقْضِي إلى قيو أو مغارة أشد ظلمة، وما كنّا نخاف نحن معشر الصفار شيئاً قدر خوفنا من تصوُّرنا الدخول إلى هذا المكان، وفتحته هذه، التي لم يخطر في بال أحد من الأهل أن يسدها بباب ولو مرتجل إبعاداً للمخاوف عن قلوبنا الصغيرة، والذي كان يزيد من مخاوفنا الكبيرة أنّ هذه الفتحة ما إن تمتد إلى الداخل مسافة حتى تنعطف يساراً إلى حيث لا نعلم!

جدتي، المسيطرة على الأسرة نساءً ورجالاً، حتى إنّ جدّي في رحلاته «المكوّية» من حلب وحمص إلى مصر المحروسة للتجارة، أثر أن يتزوج بمصرية يقضي معها الشتاء بأشهره الستة، ويعود صيفاً إلى حلب ليتابع العيش مع الزوجة الأولى، جدتي، هذه التي لا تكف عن أن تروي الحكايا، من ذاكرة خصبة يرفدها خيالٌ أشدّ خصوبة، رأيتها ليلة تحدث ضيفاتها عجائز وصبابا، بأنه يسكن في «الزغلول»، تحت، جنّي اسمه «نَعْسُو»، وأنها على صلة خفية به، وهو قادرٌ على أن يجلب النفع لمن يستجير به، والضُرُّ أيضاً...! فكان يعتريني -وأنا ابن الخامسة أو السادسة- ما يعترى النساء المصفيات، وتسري بي قشعيرة الخوف حتى وأنا في فراشي. كانت جدتي، في براعة تقديمها وتأخيرها في الحكي، تحمل ضيفاتها على أن تقف الواحدة منهنّ أمام شبّاك المطبخ التحتاني، غير متجرّئات على النزول إليه، داعيات من قلوب لهيفة:

«يا نعسو، أرجوك دبر لي شغلا لزوجي، عندنا خمسة أولاد»،
«يا نعسو، اجعل زوجي يحبني!»

«يا نعسو، خليني أحبل وأجيب صبي!»
«يا نعسو، اجعل زوجي يكره امرأته الجديدة!»
وكنّت أستغرب ما أسمع وأرى، وأنا أعرف الحقيقة في «اختراع» جدتي لشخص «المدعو نعسو»، الذي لم يكن معروفاً عندنا قبل ذلك التاريخ (شتاء ١٩٣٥م)! وكانت زوجة عمي الأكبر، التي تتحرّك في الدار مثل ظل لحمايتها، تشاركها في ترويح ذلك، وتُضيف أنها استيقظت، فجر ذلك اليوم، فرأت فيما كنّا نسمّيه «الحاصل»، حيث كانت تتجمّع المياه من القناة ومن المطر، وهو يواجه شبابيك بيتها، وقد تحوّل مع دخول «ماء» الشركة» إلى حمّام، بـ«قازطان» وتمديدات صحية... رأت زوجة العمّ رأي العين «نعسو» يستحمّ، شَفَّ لها شبحه عبر زجاج باب الحمّام «المُبَوَّظ»، فازدنا هلعاً... فلما دخلنا الحمّام لنُعَاين الببل المتخلف عن الاستحمام، قالت: إنّ نعسو نَشَفه، فهو جنّي! وممّا زاد في الطنبور نفماً، أنّ صديقاً لي في الحارة، هو في الحقيقة «أخي بالرّضاع» (اسمه «عبد الغني...»)، كان يروي لي ما تحدّثه به عمّاه العجوزان اللتان تسكنان معاً بيتاً في زقاق



دعاء

ناجي عبداللطيف - مصر

لأندُ بالباب...

أدعوك...

الرجاء..

يا إلهي..

إن أكن يوماً..

عصيت..

فاضطراري..

بين جنبتي اهتداء..

ما لنا..

في الأمر إلا..

ضعفتنا..

وهو عند السير..

يُغري..

بالفؤاد..

ذلنا..

هذا الذي..

بين يديك الآن..

فامتن..

واستجب..

منا الدعاء..

واستجب..

منا الدعاء..

في إعلان ذلك، حتى وصل الأمر إلى أبي وعمي، فعدا ذلك مني تجاوزاً.

فكان عمي يحدث ضيوفه قائلاً: إن ابن أخيه، هذا الذي يتعلم في المدارس ويكثر من قراءة الكتب، لا يؤمن بوجود الجاني!

فأصحّ القول: بأنني لا أنكر وجود الجن، ما دام ذكرهم ورد في القرآن الكريم، ولكني غير مقتنع بأنهم يظهرون على وجه الأرض بهذه الصورة أو تلك، وبأنهم يجلبون لنا الخير أو الشر.

وربّ عجوز من الجلساء وجّه إليّ سؤالاً حاسماً:

وإذا ظهر لك يوماً جنّي أو عفريت، فكيف تواجهه؟ أقول:

أضربه، أبطحه، أصرعه! فتقول وقد اعترأها الخوف: ما هذا الذي أسمع؟ دستور يا حاضرين!

وكنت ألمح في عيني أبي إشراقاً تنمّ على إعجاب بأن ابنه، هذا المتعلم، المثقف الصغير، بات يتجاوز بإدراكه ما توقّف عنده الكبار.

رحم الله الجميع، ورحمني وإياهم ■

الزهرراوي، من أن بيتهما «مسكون» بطائفة من الجنّ، يظهرون لهما في الليل على أشكال بقرة وعنزة وقرود صفار وما شابه، تراهم العمّتان - وهما في فراشهما - يعتلون ظهر الخزانة، جالسين بوداعة فهم مثل «الإخوة» لهما.

كنت أرتعب من هذا الحديث، وأحمد الله أن ليس في البيت، في الغرفة التي أنام فيها مع إخوتي، مثل «هؤلاء الإخوة»، سوى «نعمسو» الذي لم تحدثنا جدتي بأنه يغادر مغارة الزغلول!

ذات يوم خطر لعمي الأصغر أن يقتحم الزغلول، صحبه في ذلك بعض أفراد الأسرة، وكنت فيهم حامل مصباح الكاز المنير، بغية الاكتشاف وما إذا كان في المغارة أسقاط يستفاد منها.

فرايت المغارة مكاناً مهجوراً، أرضه ترابية، وتنسج العناكب فيه شباكها غير أبهة بنعمسو... فزايلتني المخاوف كلها.

في الخامسة عشرة من عمري أغرمت بالمطالعة غراماً... فتبيّنت مدى «الخرافات» التي تنسج خيوطها الجدات، فأنكرت ظهور الجنّ على سطح الأرض بهيئة بقرة أو عنزة أو قرد يجلبون الخير والشرّ، ولم أتردّد